المأمونى الشاعر

للدكتور عبد الوهاب عزام

— ١ —

ذكرت من قبل طرفاً من أخبار أبي المظفر الأبيوردى الشاعر القرشي الأموى وسميته « شاعر العرب فى القرن الخامس » إذ كان يعرب عن أخلاق العرب وعاداتهم ، ويبين عن آمالهم وآلامهم .

وأذكر فى هذا المقال شاعراً آخر من بنى الخلفاء عرف باسم المأمونى ، ينتهى نسبه إلى الخليفة المأمون بن الرشيد رضى الله عنهما .

وأقدم قبل الحديث عن هذا الشاعر أن ما نعرفه عن أخباره مأخوذ عن الثعالبي صاحب يتيمة الدهر . وإنما يروى الثعالبي أخبار هذا المأمونى فى الرى ونيسابور وبخارى ، أى فى خراسان وما وراء النهر . ويحدثنا هذا المؤلف الكبير عن شاعر آخر من بنى الخلفاء يسمى الواثق ، من بنى الواثق بن المعتصم ابن الرشيد ، ويروى من أنبائه فى تلك الأقطار أيضاً . ويخبرنا أنه كان ببخارى إذ ذاك جماعة من بنى الخلفاء العباسيين تجرى عليهم الأرزاق ، منهم : ابن المهدى وابن المستكفى . وإن قارئ هذه الأخبار ليعجب ويتساءل لماذا يذهب بنو الخلفاء إلى خراسان وما وراء النهر فى طلب الرزق ؟ وإن جاز أن يضطر إلى هذه الرحلة أبناء الخلفاء الذين بعد الزمن بينهم وبين الخلفاء من آبائهم كأبناء المهدى والمأمون والواثق ، فكيف أدركت الضرورة ابن المستكفى وقد لبث المستكفى فى الخلافة إلى سنة ٣٣٤ ، فما مضى نصف قرن من خلافته إلى الزمن الذى يحدثنا بأخباره الثعالبي ؟

ومردّ هذا فى رأيي إلى أمرين : الأول أن استيلاء البويهيين على العراق عام ٣٣٤ — وهى السنة التى خلع فيها المستكفى ، وبأيديهم خلع — ذهب بهيبة الخلفاء وثروتهم ، وأورث أبناءهم الفقر العاجل ، وكان بنو بويه يتشيعون ولا يؤمنون بخلافة العباسيين

والثانى أن بنى الخلفاء كانوا يلقون حفاوة وإكراماً فى تلك البلاد ؛ وأن أمراء السامانيين ووزراءهم كانوا يمنحونهم من التعظيم والبر ما يحبب إليهم ركوب الأسفار البعيدة إلى تلك الديار النائية ؛ والسامانيون كانوا يدينون بالطاعة لبنى العباس ويؤمنون بخلافتهم

— ٢ —

وأما المأمونى فيحدثنا عنه الثعالبي أنه فارق وطنه بغداد وهو حدث إلى مدينة الرى ، فامتدح الصاحب بن عباد بقصائد أعجبته فأكرم مثواه وقربه . يقول الثعالبي : « فدبت عقارب الحسد بين ندماء الصاحب وشعرائه ، وطفقوا يركبون الصعب والذلول فى رميه بالأباطيل ، ويتقولون عليه أقبح الأقاويل ، فطوراً ينسبونه إلى الدعوة فى بنى العباس ، ومرة يصفونه بالغلو فى النصب واعتقاده تكفير الشيعة والمعتزلة ، وتارة ينحلونه هجاء فى الصاحب يعرب عن فحش القدح ، ويحلفون على انتحال ما أصدر من شعره فى المدح ، حتى تكامل لهم إسقاط منزلته لديه ، وتكدر ماؤه عنده عليه . وفى ذلك يقول من قصيدة يستأذنه فيها الرحيل :

فكنت يوسفَ ، والأسباط هم وأبا
الأسباط أنت ودعواهم دماً كذبا
وعصبة بات فيها الغيظ متقداً
إذ شدت لى فوق أعناق العدا رتبا
أرى مآربكم فى نظم قافية وما أرى لى فى غير العلى أربا

فارق المأمونى الرى إلى نيسابور ، وفيها حينئذ أبو بكر الخوارزمى الكاتب المعروف ، فأشار عليه الخوارزمى بإنشاء قصيدة فى الشيخ أبى منصور كثير بن أحمد يسأله فيها تقرير حاله عند صاحب الجيش أبى الحسن بن سيمجور — وبنو سيمجور من ولاة الدولة السامانية وقوادها — فأنشأ المأمونى القصيدة وأبلغها الخوارزمىَ الشيخَ كثيراً ، وحسنها لديه وأثنى على هذا الشاعر الشاب . فوقعت القصيدة ممن أهديت إليه موقعاً حسناً ، وفى هذه القصيدة يقول :

إلى الله أشكو مُنَّى فى الحشى تضمن جنباىَ منها سعيرا
تُفارق بى كل يوم خليلاً وتفجع بى كل يوم عشيرا
فإن تسألانِىَ يا صاحبىَّ نفس السُّرى تجداى خبيرا
فكم كل يوم ترانى الركا بُ أفارق ربعاً وأحتل كورا
إذا سرت عن صاحبى قلتُ عُدْ لمَودى السنين وخل الشهورا
أرانى ابن عشرين أو دونها وقد طبّق الأرض شعرى مسيرا
إذا قلت قافيةٌ لم تزل نجوب السهول وتطوى الوعورا
ولو كان يفخر ميت بحىّ لكان أبى هاشمٌ بى فخورا

ولو كنت أخطب ما استحق ... لما كنت أخطب إلا السريرا
ولو صرتُ ساحت ملوك البلا ... د بين يدَيّ النقير النقيرا
ولكنني مكتف باليسير ... إذا سهّل الله ذاك اليسيرا

ويتبين في هذه القصيدة نشوةُ الشباب، وفخر الشاعر بآبائه واستحقاقه الملك كما تتبين قناعته ورضاه باليسير، وما طموحه وقناعته إلا من التناقض بين الانتساب إلى المأمون والمدح للعطاء.

أنهى الشيخ كثير أمر هذا الشاب العباسيّ الشاعر إلى صاحب الجيش

يقول الثعالبي: «فلما وقف على صورة حاله أنهاها إلى صاحب الجيش فاستدعاه. وحين وصل إليه استقبله بخطوات مشاها إليه، وبالغ في إعظامه وأبلغ في إكرامه. ثم خيّره بين المقام بنيسابور وبين الانحدار إلى الحضرة ببخارى - يعني عاصمة الدولة السامانية - فاختار الخروج فوصله وزوّده من المكتب إلى وزير الوقت وغيره من الأركان»

رحل الشاعر الشاب عن نيسابور ميمما بخارى فأبلغه إليها سفر طويل شاق؛ وكأنه يصف هذا السفر في أول قصيدة أنشأها في بخارى مادحاً أحد رؤسائها أبا الحسين عبد الله بن أحمد:

وليل كأني فيه إنسان ناظر ... يقلب في الآفاق جفنيه داميا
إذا ما أمالتني به نشوة الكرى ... تمايل في كفي المثقف ساحيا
وإنّا طما لُجّ المنى بين أضلعي ... تعسّفت لجا من دجى الليل طاميا
فأمسي شجا في ظلمة الليل داجيا ... وأضحي قذى في مقلة الصبح غاديا

أحسن أبو الحسين وفادة ابن المأمون، وبلغ الغاية في إكرامه. يقول الثعالبي:

«فتقبله بكلتا اليدين وأعجب منه بفتى من أولاد الخلافة يملأ العين جمالاً والقلب كمالاً»

وواصل صلاته، وخلع عليه، وألحقه في الرزق السلطاني بمن كان هناك من أولاد الخلفاء: كابن المهدي وابن المستكفي وغيرهما. وتتابع الوزراء على إكرامه، فكان كلما دالت الدولة لوزير نافس من تقدمه في الحفاوة والبرّ به

يقول الثعالبي: «وجعل كل منهم يُربي على من تقدّمه في الإحسان إليه، وإدرار الرزق عليه، وإخراج الخلع السلطانية والحملانات بمراكب الذهب، حتى حسن حاله، وتلاحق ماله، وظهرت مروءته». وكان هو لا يألو في شكر أياديهم بقصائد يكافىء فيها نعمهم، فلبث في بخارى حقبة منتبطاً راضياً

ومن قصيدة له في مدح ابن عزيز أحد وزراء بخارى:

أعبدَ الله لا خُيّرتُ بيتاً ... مدى الأيام إلا في علاكا
فكم لك من يد قلدتنيها ... فلست أرى لها عني فكاكا
ولو حمّلتَ ما حمّلتنيه ... ثمام لما استطاع به حراكا
وقد ألبستني أثواب عزّ ... وقد أوطأتَ أخمصيَ السِّماكا
فحسبك من عُلىً أعليت كعبي ... برفدك، فقد بلغ السَّماكا

قال أبو منصور الثعالبي: «رأيت المأموني ببخارى سنة اثنتين وثمانين وثلاثمائة، وعاشرت منه فاضلاً ملء ثوبه، وذاكرت أديباً شاعراً بحقه وصدقه، وسمعت منه قطعة من شعره، ونقلت أكثره من خطه: وكان يسمو بهمته إلى الخلافة، ويمني نفسه قصد بغداد في جيوش تنضم إليه من خراسان لفتحها، فاقتطعته المنية دون الأمنية. ولما فارقته لم تطل به الأيام بعدي حتى اعتلّ علة الاستسقاء، وانتقل إلى جوار ربه، ولم يكن بلغ الأربعين. وذلك في سنة ثلاث وثمانين وثلاثمائة»

ويصدّق الثعالبي فيما حدّث عن همة هذا الفتى وبُعد أمله وطمعه في الخلافة، شعرٌ له ينطق عن هذه الهمة وهذا الأمل، ويعرب عن ثقة الرجل بنفسه واعتداده بها. يقول في قصيدة أنشأها في بخارى:

أنا بين أحشاء الليالي نار ... مي لي دخان والنجوم شرار
فمتى جلا فجر القضاء ظلامها ... صليتْ بي الأقطار والأمصار
بي تحلم الدنيا وبالخبر الذي ... لي منه بين ضلوعها أسرار
فبكل مملكة عليّ تلهُّف ... وبكل معركة إلى أوار
يا أهلُ ما شطّت برحلي رحلة ... إلا لتسفر عني الأسفار
لي في ضمير الدهر سر كامن ... لا بد أن تستله الأقدار

— ٣ —

وأما شعر المأموني فوسط لا يسمو إلى الذروة إلا قليلاً. وقد أثبت صاحب اليتيمة له قصائد قليلة وقطعاً كثيرة أكثرها في وصف الأزهار والفواكه والأوانى والأطعمة. وقد صدرها المؤلف بقوله: «وهذا ما اخترته من شعره في الأوصاف والتشبيهات التي لم يسبق إلى أكثرها»

فأما قصائده فمنها قصيدة في مدح الصاحب إسماعيل بن عباد مطلعها:

يا ربع لو كنت دمعاً فيك منسكباً
قضيت نحبي ، ولم أقض الذي وجبا
لا ينكرن ربعك البالي بلى جسدي
فقد شربت بكأس الحب ما شربا
ولو أفضت دموعي حسب واجبها
أفضت من كل عضو مدمعاً سربا
عهدي بعهدك للذات مرتبعاً فقد غدا لمغاني السحب منتجعا

وهذه أبيات تذكر بقصيدة المتنبي التي أولها :

دمع جرى فقضى في الربع ما وجبا
من حقه وشفى أنّى ولا كربا ؟

وكأنه أراد بمطلعه مناقضة مطلع المتنبي . ومحاكاةُ المتنبي في الوزن والقافية تظهر في قصائد أخرى . وكان المتنبي شاعر القرن الرابع ، وقد ولد المأمون في أواخر حياة أبي الطيب ، والزمان يدوي بذكره ويصدق قوله :

وما الدهر إلا من رواة قصائدي
إذا قلت شعراً أصبح الدهر منشداً

وللمأمون قصيدة أخرى يمدح بها أحد وزراء بخارى أولها :

سيخلُف جفني خلفات النوائم ... على ما مضى من عمري المتقادم
بأرض رواق العز فيها مطنّب ... على عاشم بين الشّعى والنعائم
يدين لمن فيها بنو الأرض كلهم ... وتعنو لهم سيدُ الملوك الأعاظم
وبيداء لا يخطو بها الوهم خطوة
تعسّفتها بالمرقلات الرواسم
وقد نشرت أيدي الدجى من سمائها
رداء عروس نقّطت بالدراهم
خلقنا نجوماً في السماء أسنّة
مذهّبة ما بين بيض صوارم

وأظنه حاول فيها محاكاة أبي الطيب في قصيدته التي مدح بها ابن طغج :

أنا الأسى إن كنت وقت اللوائم
علمت بما بي بين تلك المعالم

وأخرى من قصائده في مدح أبي نصر أحد وزراء بخارى ووصف دار بناها ، أولها :

قد وجدنا خطى الكلام فساحاً ... فجعلنا النسيب فيك امتداحا

وهو مطلع يذكر بقول أبي الطيب :

وقد وجدت مجال القول فاسمة ... فإن وجدت لساناً قائلاً مقل

ومما وصف به الدار :

بهوها يملأ العيون بهاء ... صحنها يملأ الصدور انشراحا
شيدُها فضة ، وقرمدها تبـ ... ـر قد امتيح من نداك امتياحا
وثراها من عنبر شيب بالمسـ ... ـك فإن هبّت الصّبا فيه فاحا
كل ناد منها قد انشح الفر ... شُ بثوب الربيع فيه انشاحا
صبغة من دم القلوب فمن أبـ ... ـصره اهتز صبوة وارتياحا
ما بكاء الرياض بالطل إلا ... خجلاً من رياضها وافتضاحا
شابه النقشُ فرشها مثل ما ... شابه ولدانها دُماها الصباحا

* * *

وكأن الستور قد نشر الطا ... وس منها في كل باب جناحا
وكأن الجامات فيها شموس ... أطلعتها ذُرى القباب صباحا

* * *

هذا حديث فتى من بني الخلافة بعيد الهمة طمّاح ، وشاعر من الشعراء الأمراء الذين تشرق أقوالهم في جوانب الأدب العربي ذكراً للهمم العربية والأدب والبلاغة ، أدب النفس واللفظ ، وبلاغة الأفعال والأقوال

عبد الوهاب عزام

إلى ضحايا المغناطيسية والى المصابين بالاضطرابات العصبية

ترسل تعليمات مجانية عن شرح طرق وتدريبات تعلمك كيف تتخلص من الخوف والوهم والخجل والكآبة والوسواس ومن جميع الاضطرابات العصبية والعادات الضارة كشرب الدخان ومن العلل والآلام الجسدية وفي تقوية الذاكرة والإرادة ودراسة الفنون المغناطيسية لمن أراد احتراف التنويم المغناطيسي والحصول على دبلوم في هذا الفن اكتب إلى الأستاذ ألفريد توما ٧١٩ شارع الخليج المصري بشبرة بمصر وارفق بطلبك ١٥ مليما طوابع للمصاريف فتصلك التعليمات مجاناً .